محمد اشويكة

قاصّ وناقد سينمائيّ. من مواليد ١٩٧١. يشتغل أستاذًا للفلسفة. صدر له في القصة القصيرة خمسُ مجموعات قصصيّة، وتجربتان في مجال القصة الترابطيّة، فضلًا عن دراستين حول القصة القصيرة. أما في النقد السينمائيّ والصورة، فله خمسُ دراسات.

قِيثارِ بِنْ وس

قبل الخروج إلى مشـواري الخاصّ، قرّرتُ تعميدَ نفسـيَ بماء خاصّ، في حمّام بربريّ كنتُ قد قرأتُ إعلانًا خاصًّـا عنه في أحد المنشـورات الخاصّة جدًّا: تدليك بزيت الأركان العجيب، وأنوار شـموع، وموسيقى روحيّة فريدة. كان جسدي الرهيف في حاجةٍ إلى كلّ ما يساعده على الارتخاء: أيدٍ ناعمة، متخصّصـة في التدليك، جعلتني أتذوّق مزايا الصابون الأسود الممزوج بزيت العود الأصـيل. أحسستُ بأنّ جسدي يتحلّل، اسـتعدادًا لتغيير الجلدة الزائدة، وتنظيف الخلايا والمسـامّ. زيوت طبيعيّة، أعشـاب عطريّة وطبّيّة. لا يمكن أن أنسى الأيدي التي عبثتْ بكلّ شيء في جسدي النحيل، الذي ينتظره أسبوعٌ صعبٌ من الظهور.

كان لزامًـا أن أخضـع لهذا التدليك. ترياقُ البصـمات يتسـلّل إلى دواخلي الرهيفة. أُحِسُّـني كالغيمـة الباردة التي فقدتْ رطوبتَها فوق جبال الأطلس، فعمّت السـخونةُ كلّ الأمكنة. دماغي الصـغير في حاجة إلى الصـمت. كنتُ أتمنّى ألّا يكتشف الإنسـانُ اللغة، أو أن يكون كائنًا يعبّر بالغنـاء؛ فقد أتعبتني الثرثرةُ والتفاهة، وأنا المُعَلَّقُ يوميًّا على الواجهات. يغمغم الناسُ أمامي مـن دون أن ينتجـوا معنًى. يرطنون من الصـباح حتى المسـاء مـن دون أن يرحموا جمجمتي المتقلّصـة. تقهرني الأشـعّةُ والانعكاسـات. تُخَدِّرُني خلطاتُ سـوائل التنظيف. يمَدِّدُني دعكُ المنظّفات المقهورات للزجاج الأملس:

ـ زِيطْ زِيطْ زِيطْ.. زيييييييييط.. زيييييييط...

ولأنّ وحـدات سُـلَّمِي الصّـوتيّ لا تخترق أيّ جـدار، ولا تُلْقَى من أيّ منـار، ولا تتوفّر على توابل الإبهار، فلا يسـمعني إلّا ذوو الحساسـيّات الخلّاقة المرهفة الذين فقدوا أيّ رغبة في اعتلاء منصّـات القول. آتيهم كما يشـتهون: صوتًا ناعمًا، مناسبًا لوضـعيّاتهم. قد أكون آهة، زفيرًا، شهيقًا، موّالًا، أنينًا... هل تتصوّرون كلّ تلك الأصوات الصادرة عن جسم بحجم الخليّة؟

أنا الخليّة، أنا ساكنها. إلهٌ في خليّة غير قابلة للانقسام! آخِرُ جُسَيم صغير مُتَبَقٍّ بعد أن تفتّتت الأشياء. كنتُ، رابضًا، أشيد حضارة الواجهات زجاجةً زجاجة. كلّ شيء في الزجاج.

الشـفافيّة للجميع... تمامًا كما أرى نفسـي. لا شـيء يحجب دواخلي البلّوريّـة. لا يحرجني أن أصـرّح بممتلكاتي الخاصّة، وأعضائي الحميمة. هدفي أن يصبح الإنسان شفّافًا كآلة زجاجيّة تسّـهل رؤيتُه مـن كلّ الجهات. تَعْبُر الرؤية إلى ما وراءه. كُلُّ واحـد يرى ما بداخل الآخر: كميّة الحـب، كيميـاء العقل، حجم الكراهية، حيوانات اللذّة، درجات السـخونة والبرودة، تفاصـيل الأحـلام، مسـارات الكذب، احتياطيّ القلق. أحلم بالإنسـان الأكواريوم: كلّ شـيء يسـبح في انسجام!

اكتشفتُ أنني أحبّ نفسي قبل مخلوقاتي. أراقبها بشكل رهيب. أتتبّع تلك التي تَنْشُدُ التميّزَ عن النـاس العاديين، الباحثة عن الانتماء إلى النخبة، المتمادية في إعادة إنتاج سـلوكات الطبقة التي تدّعي الانتساب إليها، وما دونها حقيرٌ وبئيس، مخلوقات لا تجيد الحديث، أسلوبها يفتقد

إلى اللياقة، تجلس كأكياس الطحين، تأكل كالبقر، تخلط ما لا يجتمع.

أرى هذا ولا رأي للعباد...

يتظاهرون بما ليس فيهم. يريدون التأثير في كلّ شيء. يدّعون الغنى. لا يستطيعون الابتعاد عن أماكن الاستعراض. لا يتركون أيّ فرصة لإثارة الانتباه. يحملقون في كلّ الاتجاهات. يعلّقون في آذانهم أشياء، وفي أنوفهم أخرى، وفي أصابع أيديهم الكبرى والصغرى يضعون بعض المُوتيفَات. يصبغون الوجه والشعر بكلّ الألوان. يُقَبِّلُون أيادي النساء وهم ينحنون حَدَّ الانطواء. لا يتردّدون في إخراج المناديل والمناشف ـ بدون مناسبة ـ من كلّ الجيوب التي تغزو ألبستهم الخفيفة وكأنهم يلبسون الجيوبَ أصلًا!

أراهم يضعون كلّ شيء أمامهم حين يركنون إلى طاولة، وما أكثر الجالسين! كلّ المدينة جالسة. يُظهرون هواتفهم المحمولة، حواسيبهم الشخصيّة، أكسسواراتهم الإلكترونيّة وغير الإلكترونية، ساعاتهم اليدويّة. تتفنَّنُ النساء في إبراز بعض الأجزاء الحميمة من أجسادهنّ بِشَبَقٍ متقاطر من العيون والمسامّ وكلّ الثقوب. أراهنّ يلبسن التنُّورات القصيرة من دون تُبَّان، والقمصانَ الشفّافة من دون حمّالات نهود.

صوَرٌ يصعب أن تزول من مخيّلتي الميليمتريّة. يثرثرون، يستمعون إلى موسيقى صاخبة تتطاير أصواتُها من السمّاعات الغائرة في آذانهم. يدردشون في غرف التشات الإلكترونيّة. ينشرون صورهم. يتبادلون «اللاَّيْكَات.» ينشرون مقاطع الفيديو الخاصّة بهم على اليُوتيوب. يبعثون سَقْسَقَاتِهم الملغزة بشكل مسترسل. لا يتعبون. يقترفون كلّ شيء كي يراهم الآخرون.

أحيانًا، يتسرّب التعبُ إلى كياني. ما قيمة كلّ هذا التواري خلف الزجاج؟ لم لا أكون كهؤلاء؟ أتذكّر حجمي، فأكاد أغرق في عرقي وأندحر نحو الأسفل. أتشبّث بالمُلُوسَة وأصعد كي أتمتّع بالرؤية. أجدني مُنْشَدًّا ومتمتّعًا بما أرى. شيءٌ ما يصلني بهؤلاء. أحسّ بأنني أرعاهم وأحرسهم. أتجسّس على حميميّتهم وعُرْيِهم، فأبتهج أيّما ابتهاج. تمنّيتُ أن يروني كذلك لنتبادل الشغف وتكتمل اللذة، لكنّ حقيقتي تمنعني من الظهور.

عندما يقف أحدُ المارّة أمام الزجاج كي يرى السلعة المعروضة، أرْقب حركاته. وحين يطيل النظر أخاف من حَمْلقَاته. أظنّ نفسي داخل قفص زجاجيّ يتيح المشاهدة لمن يستطيع الدفع، فأقوم بأوضاع شبيهة بتلك التي تقوم بها نجمةُ العروض في مَشَاهِد الـ«Peep-show». أعرض الوضعيّات بالدقائق. أُسَرِّبُ المتعة عبر الثقوب. لا أرى مَن يراني. ولا أفكّر في إحساسي بعد انتهاء العرض. ينتابني شعور يختلف عن ذلك الذي يعشق السينما رغم أنها فَنّ يعتمد على شهوة البصر. لا يهمّ من يراني.. ولا يضيرني أن أراه.

كنت أتمنّى، دائمًا، أن يكتشفني مخرجٌ سينمائيّ أو أديب أو رسّام، فَيُخَلِّدني في عمل فنيّ يُظهرني في مختلف الوضعيّات التي يحبّ النجومُ أن يقدّموا بها أنفسَهم للناس: معطفٌ واقٍ من المطر وقبّعة سوداء.. باروكةٌ وماكياجٌ وحلاقة تطول الرموش والحواجب...

قد يعتقد البعض أنني أعيش الوهم، أو أسعى إلى الشهرة السريعة، أو أرغب في أن يكون لي أتباعٌ أستغلّهم في جلب الانتباه إلى شخصي. لكنّهم سيؤكّدون لكم بأنفسهم أنني أراهم من بعيد، أعرض نفسي في مكان عموميّ وشفّاف. أؤكد لكلّ المتهمين أنّ هدفي نبيل: تعليم فنّ الحياة للنساء والرجال؛ فهم مساكينُ يعيشونَ فِي كَمَدٍ انطواءَاتهم.

كي أطمئنكم: اعتبروا ذلك مجرّدَ وسواس.. هذياناتٍ عُصَابِيَّة.. ردودَ أفعال أرغب من خلالها في انتزاع ابتساماتكم وأنتم تمرّون كالنمل أمام الزجاج... اعتبروها هواجس عابرة لِكائنٍ يرغب في تمرير الحضارة عبر الزجاج. أنا من زُجاج. كلّ شيء يبدأ من الزجاج ويعود إليه. وقد استطاعت الطبيعة أن تبلورني حين اختلط الرملُ بالنطرون تحت تأثير النار. أتحوّل إلى أشكال مختلفة بفعل النفخ. أنا جامعٌ لكلّ العناصر الأولى. أنا من موادّ توجد في أجسادكم التي أتفرّج على بهرجتها بشكل دائم. لم تكن مهمّتي سهلة. كلّ الآلهةَ خلقوا ما أرادوا وأسّسوا أساطيرهم وارتاحوا، إلّا أنا. لا أعرف من الذي غَيَّرَ سلوككم الأول: أليس العري هو السليقة الأولى؟!

مساري طويل في الترويض. خُضْتُ حروبًا ضاريةً ضدّ مخترعي اللباس وفقهاء الحشمة. فقدتُ جسمي، عضوًا عضوًا، إلى أن بقيتْ بعضُ الخلايا التي اندمجتْ في خليّة واحدة هي أنا. كنتُ أحتمي بالزجاج. عبره يتسرّب النور، الدفء، الغذاء. ساعدتني طبيعتي الميكروسكوبيّة على المقاومة بفعل تكاثف جهود بكتيريا وڤيروسات وفطريّات صديقة. تحدوني رغبة جارفة في أن يصبح كلُّ شيء داخل الزجاج. ألم تلاحظوا ناطحاتِ السحاب وناطحات الشمس التي تعلوها الخوازيق؟! كلها زجاجٌ في زجاج. وأنتم أيها البشر؟ رجالُ الموضة رُسُلي، سيُعرُونَكم رويدًا رويدًا. يُقَشِّرُونكم قشرةً قشرةً كالبصل. سيخفّفون عنكم أوزارَكم التي لا عهد لكم بها. عجيب! أسعى إلى تحريركم وما أنتم لذلك بمُقْرِنين!

أنا، الآن، مستمتع بكم. مَزْهُوٌّ بشبابكم رغم أنّ أيّامي بينكم معدودة. اخترعتم لأنفسكم كلَّ ما يجعلكم ترون كلّ شيء بينكم. معزولون في غُرَفكم، تتفرّجون بعضكم على بعض. يا للمتعة! تفرّجوا...ارقصوا. أنا أيضًا أرقص كي لا أصبح موجودًا.

أنتم استمراري... انتشروا... سيروا... أنا أيضًا أسير كي يتوقف مصيري. أنتم مصيري... يا لَذَّتي!

تمتّعوا... اشتهوا... أنا أيضا أشتهي كي تنقطع هواجسي.

أنتم هاجسي...

أراكُم ولا تَرَوْنَنِي...

وحدي أتضاءل.. أنكمش. أنا ڤيتْرِينُوسْ. أسقط، الآن، في الظلام، من أجل أن يستمرّ النورُ...

نُورُكُم نُورِي.. نُورٌ نُورٌ.. نُورٌ على نُورٍ...

تركتكم في النور...تواريتُ خلف النور.

مراكش